

لغة المسرح بين العامية والفصحى

١

كثيرون يظنون أنه لم يكن لمصر عهد بالمسرح وتمثيلياته قبل محاكاتها للمسرح الأوربي في النصف الثاني من القرن الماضي، وهو ظن مخطئ، إذ كان لديها من قديم مسرح خيال الظل، وهو مسرح دمي متحركة متكلمة. وعرف العرب هذا المسرح في مطالع القرن الثالث الهجري، إذ نجد فنناً خيالياً يتوعد الشاعر الهجاء دعياً إن هو هجا أباه أن يتخذ أمه في الخيال سخريّة يُضحك عليها الناس. وشاع الخيال في العالم العربي، وعُنت به مصر زمن الدولة الفاطمية، إذ كانت تكثّر من الاحتفالات في الأعياد الإسلامية والمسيحية والمصرية القديمة، ويقول المقرئ: «كان الناس يطوفون في تلك الأعياد بالخيال والتماثيل والسّمجات». والتماثيل هي دمي خيال الظل وأشباحه والسّمجات: شخوص كانوا يتراءون في صور منكّرة مضحكة. ويقال إن صلاح الدين الأيوبي الذي كان في شغل دائماً بحرب الصليبيين اختلس من أيامه التي كان يقضيها في القاهرة بعض الوقت ليشاهد مسرح خيال الظل، وأعجب بما رآه عليه من تمثيل ودمى متحاورة.

ويرقى ابن دانيال أكبر الخياليين في عصر المماليك بتمثيلات خيال الظل رقيّاً بعيداً، إذ ألف له - كما ذكرنا في كتابنا: الفكاهة في مصر - ثلاث تمثيلات بديعة، أولها وأهمها تمثيلية «طيف الخيال» وهي ملهاة هزلية، تصور جوانب من الحياة الاجتماعية في عهد الظاهر بيبرس، ونرى طيف الخيال في فواتحها يعرض أمر بيبرس المشهور بتحريم الغوايات وتشديده في عقاب أصحاب الحانات، ويتصور أن إبليس مات وانتهت غواياته ويرثيه رثاءً هزلياً مضحكاً، واصفاً كيف كُسرت أواني الخمر ودنانه، والخمارون يتباكون بدموع غزيرة. وتبدأ مشاهد